الفصل التاسع

البحث الأول : شيء عن المرأة المندائية

البحث الثاني : الصابئة المندائيون ودورهم الحضاري

البحث الثالث : نظرة إلى اللغة المندائية

البحث الرابع : عمر الدنيا والتاريخ

البحث الخامس : مع المندائيين في إيران

البحث الأول

المرأة المندائية

مكانة المرأة في الديانة المندائية :

كتبت الشاعرة المبدعة إلهام زكي خابط عن المرأة في الديانة المندائية: المرأة هي ذلك الإنسان الجميل الذي حباه الله سحرًا وجمالاً ومنحه صبرًا وإيمانًا، وزاد عليه عطفًا وحنانًا.

إنها حواء؛ المرأة الأولى التي بدأ بها العالم، المرأة هي نصف المجتمع؛ فهي الأم، الأخت، الزوجة، الابنة... وهي العاملة، المعلمة، الطبيبة، المهندسة والمحامية الخ، وهي الحبيبة التي يتغنى بها الجميع، لهذا فهي جديرة بأن تكون الوتد الذي ترتكز عليه خيمة المجتمع.

ولكن رغم ذلك فإنها لاقت وما زالت تلاقي شتى أنواع الظلم والاضطهاد، بسبب التقاليد والأعراف الاجتماعية الصارمة التي طُبقت عليها كإنسان مستضعف من قبل المجتمع الذكوري، وهذا بواقع الحال يخالف القيم الإنسانية وما جاء في الكتب السماوية.

وفي النصوص المندائية قد جاء الآتي:

وبأمر الخالق العظيم خلق آدم وخلقت حواء لتكون زوجة له... امرأة لآدم تعطى وتكون له شريكة، جَعلتُ آدم مثيل العظام، وعلى رأس الذرية الحية وحواء على مثيل (انانا دنهورا)، جعلتها سيدة الدنيا كلها... كما جاء في الـــ(كنزا ربا) أي الكنز العظيم...

أيها الرجال: إذا اتخذتم لأنفسكم أزواجًا فاختاروا من بينكم، وأحبوهن وليحفظ أحدكم الآخر، واعتنوا ببعضكم عناية العيون بالأقدام وليحب بعضكم بعضًا، وليحتمل بعضكم بعضًا، تعبروا بحر وسوف العظيم.

كما جاء في كتاب دراشة اد يهيا: قال يحيا يهانا لزوجتة أنهر: أنت علمي بناتك عدم الخنوع، وأنا أعلم أبنائي وأوصيهم بأن لا يكونوا منغلقين.

وهذا نص صريح وواضح أن الدين المندائي لا يريد للمرأة الخنوع أو الخضوع أو الانسياق الأعمى وراء الرجل، بل أراد لها المكانة الرفيعة في المجتمع وأن تكون ذات رأي مستقل في اتخاذ القرار الصائب فيما يخص شؤونها، فالمرأة المندائية لها الحق في التعليم والعمل وفي اختيار الزوج، كما يجيز لها العمل الكهنوتي والارتقاء إلى أعلى درجاته.

ومن تعاليم يهيا يهانا (النبي يحيى) أيضًا:

جاء رسول الخالق فقال إلى سام بن نوح: لا يخيفك إن اتخذت لك زوجًا لا تظهر لك حبها وقد أنجبت لك أبناء، لو لم تكن الزوجة في هذا العالم لما خلقت السماء والأرض... لو لم تكن الزوجة ما كان ماء الحياة وما تكونت البذور، لولا الزوجة لما هبت الريح وما اتقدت النار...

فالزوجة كالماء والسماء والأرض والنار، وحين يكبر أبناؤك يستمر اسمك في العالم ويبقى، إنهم يقيمون الطقوس ويحملون جثمانك ويشيعوك إلى مثواك الأخير ويقرأون التراتيل لارتقاك ومن أجلك يعطون الصدقات كي تمنح الثواب والمغفرة.

ومما يجدر بنا الإشاره إليه هو أن الدين الصابئي المندائي قد تعامل مع الجنس البشري من خلال النفس (النشمثا) بغض النظر إن كانت تلك النفس هي امرأة كانت أم رجل، وهذا ما نلاحظه واضحًا في مخاطبة الله لتلك النفس، كما جاء في كنزا ربا:

أيتها النفس الذاهبة إلى ربها طريقك طويل... الخ.
أيتها النفس لماذا تخافين والذين يرافقونك من الأثريين.
طوباك أيتها النفس، اصعدي أيتها النفس إلى دارك الأول.

وهناك الكثير من النصوص التي تؤكد بعدم وجود فوارق ما بين الرجل والمرأة فهما يقفان متساويين أمام ميزان أباثر.

إن الدين المندائي قد كرَّم المرأة أعظم تكريم وبجلها أعظم تبجيل ومنحها كافة الحقوق الممنوحة للرجل، كما منع منعًا باتًا معاملتها بسوء... والدين المندائي ينسب الابن لأمه ذلك لأسباب دينية بحتة، فيقال للذكر فلان ابن فلانة وللأنثى فلانة بنت فلانة.

ذلك لأن الصابئة يدعون على أنه بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بخلق آدم من طين؛ خلق حواء من جسمه، وبعد إنجابهما لم يتزوج الأبناء من أخواتهم، إنما أرسلت البنات إلى عالم آخر فيه أناس مثلنا يسمونه أمشوني كشطا، أي عالم الحق، وجيء بفتيات من أمشوني كشطا إلى أولاد آدم فتزوجوهن، وعلى هذا الأساس فالمرأة في نظر الدين من عالم غير عالمنا، فقد أتت من عالم كله طهارة وعهد، ثم يقولون إن آدم خلق من طين وحواء خلقت من جسمه، وعلى هذا الأساس فتسمية الابن باسم امه أعلى من تسميته باسم أبيه دينيًا.

(آدم من طين أهوه، هوه زوي من كانا اد نافشي أهوت) أي أن آدم من طين وزوجته حواء خلقت من نفسه، وبذلك فهي أطهر من الطين، وبذلك تكون المرأة الصابئية تحتل مكانتها الخاصة في الديانة المندائية، وهي المكانة التي ترتقي إلى المساواة بين الجنسين في كثير من مجالات الحياة، وفي حالات أخرى تحتل المرأة مكانة أرفع... لكن رغم ذلك فقد طالتها قساوة المجتمع الذكوري أسوة بكافة النساء من الديانات المسلمة والمسيحية واليزيدية.

لقاء المرأة المندائية الأول :

كما تفضلت الأكاديمية الأستاذة فريان زهرون وذكرت أن المرأة المندائية لا تمثل نصف الطائفة فقط؛ بل هي الجذر الرئيسي الأصيل فيها، وهذا بينه ديننا الأزلي (وأمرناكم أن اتخذوا لكم أزواجًا تعمر بكم الدنيا وتكبر)، وهي المكلفة ببناء ورعاية العائلة (زوجتك تبني لك عائلتك)...

وتأكيدًا لهذا المفهوم قدر مجلس شؤون الطائفة العام إعادة تنشيط لجنة المرأة لتكون النافذة المفتوحة لمناقشة وطرح مختلف القضايا والاستفسارات الخاصة بالمرأة المندائية وإمكان إيجاد ما ينفع فيها من حلول عن طريق عقد اللقاءات والاجتماعات.

عقد اللقاء الأول في ١٠ / ٤ على قاعة المندي الكبرى تحت شعار (ليجمعنا كشطا في محبة أخوية) ، حضرته مجموعة خيرة من السيدات والآنسات المندائيات ، ومن بين ضيوف المرأة المندائية فضيلة الشيخ خلف عبد ربه ، الذي شاركنا ولمدة ساعة بنقاش مفتوح تلقى فيه أسئلة الحضور ، وأجاب عنها إجابات شافية في مختلف الموضوعات ، وفضيلة الشيخ كريم سلمان وفضيلة الشيخ علاء كاظم وفضيلة الشيخ هيثم سليم ، والأستاذ حرب نعمة مسؤول قسم الشباب والمرأة والأستاذ مؤيد مكلف.

كما بارك أبونا فضيلة الشيخ عبد الله هذا اللقاء الذي ساعدت في إقامته اللجنة التحضيرية ضمن اللجنة الدينية الثقافية للشباب المندائي ، المنبثقة عن المجلس الروحاني العام ، وضمن ما طرح فيها على نصوص مستقاة من كتاب (كنزا ربا) مبارك اسمه، جاء فيه:

(أبشميهون إد هيي ربي اسوثه وزكوثه نهو يلخون) من المعروف تاريخيًا أن الديانة المندائية أولت اهتمامًا مميزًا بالمرأة ، وجعلتها مساوية للرجل في الحقوق في مختلف المجالات : دينية وفكرية واجتماعية ، وقد أثبتت المرأة المندائية وجودها في التاريخ المندائي ولها أسماء لامعة ، فمنهن من دخلت

السلك الكهنوتي حتى درجة الريشما، وهي أعلى درجة دينية، وفي المجالات الإبداعية الأخرى كانت الطبيبة، والمهندسة والمعلمة والشاعرة وربة البيت الواعية المديرة.

أختي المندائية عليك أولاً أن تعطي نفسك حق قدرها، وأن تترفعي عن صغائر الأمور وتفاهات الحياة، فلا تلهيك مغريات العصر عن أهم واجب يمليه عليك دينك من طاعة كاملة للحي الأزلي (هيي قدمايي)، ونحن نطالب الأخت والأم والزوجة أن تكون شخصيتها مميزة فريدة نابعة من أخلاق ديننا المتأصل الجذور الممتد في أعماق الزمن، فلكي تنمو أجسادنا نبحث عن الغذاء الجيد، وهي العملية ذاتها في تغذية أرواحنا، فطعامنا الروحي هو إيماننا بتعاليم الحي العظيم، وواجب علينا أن نعرف الواجبات ونفهمها ونهضمها بطريقة صحيحة، ونتأمل الحقائق من خلال المعرفة والإطلاع حتى نكشف لأنفسنا عن أخطائنا ونطمئن لغفران الحي لمعاصينا.

أخواتي الفاضلات كلنا يعرف أن الدين المندائي أول دين عرف الخالق، ووحده وآمن به مع أول خلق الله (آدم عليه السلام) رأس السلالة البشرية، فكانت صحفه المعظمة، بها وضع أول ناموس للحياة، وبها نشر العدل والإيمان وعرفت حقيقة الخلق العلوي وعوالم النور وأسرارها ومكوناتها، بهذه الصحف نزهو فخورين، لقد ورثناها كاملة مكتملة في كتابنا المقدس (كنزا ربا)، جل من أنزلها سبحانه ملك النور السامي الذي لا حدود لقدرته، ولا شيء بدونه وما من شيء لولاه، أزلي ليس له بداية وأبدي ليس له نهاية، فالخالق واحد انبثق من ذاته، لا أب جاء منه، ولا أخ قاسمه الملكوت، كل أسمائه حسن وجمال ووقار وعظمة، إن وحدانية الخالق الذي لا شريك له هو أول ركن من أركان الدين المندائي.

أما الصلاة فهي حبل مجدول يوصلنا بالخالق، فيها تصفو عقولنا وتسمو نفوسنا وتهدأ قلوبنا وتنقى ضمائرنا، فعلى الخالق نعتمد ومنه نطلب وإليه نعترف وبه

نحتمي، فلتكن صلاتنا دائمية دون انقطاع، نتلوها في وقت الضعف والشدة، فلنرفع آيات الشكر للرب في حسن أمورنا وأوقات شدتنا، وهذا هو الركن الثاني، أما الركن الثالث فهو الصدقة المباركة، فالصدقة عظيمة وهي أفضل من الزوجة والأبناء لأن الصدقة مطلوبة للطريق، فهي مثل اليد للفم، ومثل الأعمى الذي يطلب التماس الطريق، إن انعدمت الصدقة فلن يكون هناك معبر للحياة، ويل للسيئين الكاذبين الذين تناسوا الصدقة ولم يمنحوها، ونسوا الخالق الذي أمرهم بأدائها للفقراء والمحتاجين، أحبوا الصدقة وأحبوا ملائكة يوم الأحد الذي وضع معبرًا على البحر، الآلاف الآلاف واقفون على ضفافه، من كل ألف يعبر واحد، ومن ألفين يعبر اثنان، ومن يرزق ولا يهب يقف عاريًا أمام بيت الحساب.

أما الركن الرابع من أركان الديانة المندائية النقية البيضاء هو التعميد (الصباغة)، التي تطهر وتهذب وتنقي النفوس من الأخطاء التي ارتكبت في زحمة الحياة، إن الغطس تحت الماء يعني الموت، والخروج إلى ضفة النهر يعني حياة جديدة وميلاد جديد، وأن أداء القسم إلى المحافظة على الرسم الطاهر وعدم تبديله برغم المغريات فهو الثبات الحقيقي.

أما الركن الأخير فهو الصيام؛ فالمؤمن المندائي الحقيقي النقي القلب والسريرة إذا نظر إلى شيء لا يعود له يعتبر ذلك خطيئة، وأن الغمز واللمز خطيئة، والظنون والغيبة والنفاق والكذب خطيئة، والزنا وشرب الخمر خطيئة كبرى، والتجديف على اسم الخالق من أكبر الكبائر، وعدم الالتزام بالمبطلات خطيئة، وعدم احترام خلق الله خطيئة.

أيتها الأخوات : تمسكن بشريعة دينكن والبسن رداء النور، ولتضعن الأكاليل الزكية على رؤوسكن، وتعلمن الحقيقة التي لا يداخلها شك، انتبهن أن لا تتزوجن ولا تزوجن ممن يعتنق غير دينكن، فأبناؤكن يصبحون عبيد، وخطيئتهم ستقع عليكن، وستكون وقود للنار الحامية المستعرة، فالمرأة المتسخة

وغير الزاهدة يبتلعها الظلام ، والمرأة النجسة وغير الطاهرة لن تعبر بحر الزوال، المرأة النجسة غير الطاهرة توضع عليها وزرة ممزقة، المرأة النجسة غير الطاهرة يولد لها ابن ميت تلعنها السماء والأرض.

عندما يتسخ الماء الطاهر النقي تتكشف الأسرار الخفية، تطهروا بالماء الجاري وباسم الحي العظيم من قمة رؤوسكم حتى أخمص قدميكم، وتزودوا بزوادات السفر لكي ينفتح لكم الطريق الطويل بعد أن تغادر نفوسكم أجسادكم، فكل من حمل زاده معه عندما يصل المعبر سيعبره، وكل من لا يحمل زاده معه يجلس مرتقبًا حتى يشيب شعره وهو يرتجي الذهاب مثل الذي يرتقب حصاد الزرع.

أخواتي : تمسكن بحبل النجاة وعلمن أبناءكن تعاليم وأصول الدين منذ البدء، فمسؤوليتكن هي العائلة والأطفال ليكونوا ثابتين راسخين كثبوت مندائيتهم في الأرض ، مسبح اسمك يا خالقي نور لا يجافي محبيه... والحي مزكي.

ضياع حقوق المرأة في زمن الحرية :

إن للمرأة دورًا بارزًا في المجتمع، كما ذكرت الأستاذة سحر عبد الرحيم بركة في مقال لها؛ وذلك واضح من خلال ما قدمته من خدمات عديدة للإنسانية، فقد شاركت الرجل في شتى ميادين الحياة العلمية والعملية، وقدمت بذلك عطاء زاخر لا حد له، ومازالت تظهر قدراتها بشكل فائق ومتطور أكثر من ذي قبل، وقد ناضلت كثيرًا ومازالت من أجل تقديم المنفعة للمجتمع لإثبات وجودها على مختلف الأصعدة...

فمقابل كل ما قدمته المرأة من إنجازات عظيمة وكبيرة وكثيرة أيضًا؛ ومن خلال المهام التي أنيطت بها فهل تستحق هذه المخلوقة المنتجة لكل ما هو جيد وخير أن تسلب حقوقها؟ وهي أبسط ما يمكن أن يقدمه المجتمع لها إزاء ما بذلته من جهد وعناء لخدمة الإنسانية؟.

فنحن الآن في زمن مختلف عن كل الأزمان التي مضت، والتي كان الناس جاهلين لحقوقها، فقد كانوا سابقًا يعتقدون أن كل ما للمرأة هو مأكل ومسكن، لكن الآن اختلف الأمر، فتلك الأزمان قد ولت وانتهت، وعلينا اليوم أن ننظر لواقعنا الجديد في هذا العصر المتطور الذي تفتحت فيه عيون العالم لما كان متواريًا عن الأنظار.

إن القوانين التي صدرت مؤخرًا هي ليست سوى انتهاك واضح لحقوق المرأة وتجريدها من العادات والأصول التي اعتادت عليها، إضافة إلى ذلك نلاحظ أن هذه القوانين هي انتهاك واضح لشخصيتها وتقييد لحريتها، فما قيمة الإنسان بدون كرامته؟ وكيف يستمر في الحياة وهو يشعر أن لا أهمية له، فهل تستطيع المرأة العراقية من خلال كل ذلك أن تتعايش مع مثل هذه القوانين التي ستفرض عليها فرضًا، وليس بملء إراداتها لأنه لا توجد أي من النساء في هذا العالم تقبل أن يمحى وجودها وأهميتها بهذا الشكل!! ولهذا أناشد كل من يهمه

الأمر أن يعيد النظر بهذه القوانين التي هي مؤكد لن تجلب سوى المشاكل للأسرة العراقية وبالتالي للمجتمع بأسره.

المرأة العراقية والحياة السياسية :

عندما نتكلم عن دور المرأة العراقية في المجال السياسي؛ يجب علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار مسألة وضعها داخل البلد، حتى الآن لم نلاحظ أي اهتمام كاف يشجع المرأة على الانخراط في السلك السياسي، بل بالعكس؛ فهناك العديد من المعوقات التي ظهرت ولازالت تظهر لاعتراض طريق المرأة نحو السير في ذلك الاتجاه الذي سلكته من قبلها الكثير من النساء في هذا العالم.

فهناك العديد من النساء العراقيات المؤهلات لمثل هذا الدور ، وأعتقد أنه باستطاعتهن القيام بهذه المهام وبشكل فائق إذا أتيح لهن المجال لإثبات ذلك، فلم نسمع من قبل أن هناك امرأة عراقية قد تقلدت منصب سياسي مرموق، فلماذا لا تعطى لها الفرصة لكي تظهر إبداعها وإنجازاتها في هذا المضمار المهم الذي يتطلع إليه البلد في المرحلة المقبلة، حيث يتحدد في هذه الفترة مستقبل البلد السياسي...

ومن الجدير بالذكر أن عددًا الإناث في العراق يفوق عدد الذكور، ومن خلال ذلك يجب أن تحظى المرأة العراقية بقسط من الاهتمام من قبل المسؤولين والمختصين في هذا المجال ، وهذا يؤدي إلى النجاح في شتى الميادين وأن تكون للمرأة العراقية يد مساهمة في بناء العراق الجديد لكي يتقدم بلدنا إلى الأمام ويسمو ويزدهر.

وإن شاء الله سيزداد عطاؤها وتبرز صورتها من جديد وبشكل أوضح تلك الصورة التي اختبأت خلف تراكمات السنين، وآمل أن تعوض المرأة العراقية عن كل ما حرمت منه، وخاصة حقها السياسي، ونتمنى أن يكون لها موطئ قدم في الحكومة القادمة.

المرأة العراقية... أوجاع وآمال :

عند الحديث عن الحروب التي داهمت الشرق الأوسط إبان العقود الأخيرة من القرن الماضي؛ يتبادر إلى الذهن مباشرة الحروب التي مر العراق بها منذ عام ١٩٨٠ وما تلاه من أعوام، حيث بدأت مأساة شعب بأكمله برجاله ونسائه وأطفاله وشيوخه، ولكن الحيف الذي مر على المرأة يستحق أن تسلط الضوء عليه، فالنساء عادة يتصدرن قائمة الفئات المتضررة من جراء اندلاع النزاعات إذ إضافة إلى أنهن يشكلن نصف المجتمع ؛ يصبح لزامًا عليهن في ظل الظروف الاستثنائية أن يشغلن الشاغر الذي يتركه الرجال خلفهم عند التحاقهم بجبهات القتال.

لكن نساء العراق لهن سجل يتوجب التوقف عنده بسبب كثافة وتنوع التجارب، فلنتناولها بالتسلسل منذ عام ١٩٨٠:

اندلعت الحرب مع إيران في أيلول عام ١٩٨٠، ووقع على عاتق المرأة العراقية عبء ثقيل هو القيام بدور الرجل الذي انضم إلى صفوف المقاتلين، فصارت العراقية تعمل في مجالات عديدة لم تكن تشغلها من قبل، فإضافة إلى واجبها كأم صار عليها أن تقوم مقام الأب في فترة غيابه، وفي حالة فقدانه تصبح أرملة أو ثكلى أو عانس في أحسن الأحوال. ففقدان المعيل كارثة كبرى في مجتمع شرقي أبوي المركزية، ومع ذلك صبرت المرأة العراقية وأثبتت جدارة متميزة مستغلة كل الظروف الصعبة لتحفظ للمجتمع العراقي صموده رغم مروره بحرب عاتية استمرت ثمانية أعوام، وحصدت آلافًا مؤلفة من الأرواح، وكان أملها أن تنزاح غيوم الكرب والألم التي تصاحب الحروب عادة لتبزغ شمس السلام والحياة الطبيعية بعدها...

ثم وضعت الحرب أوزارها عام ١٩٨٨، وتنفس العراقيون الصعداء على مدى عامين متتاليين، وانتعشت الآمال وعادت أنشطة المرأة العراقية لتتخذ مجراها الطبيعي، مقتصرة على أعمال بدت لباقي المجتمعات في الدول المجاورة مهام ومسؤوليات كبرى لم تنهض النساء بمثلها.

حتى جاء آب عام ١٩٩٠؛ وجاءت كارثة احتلال الكويت، وما لحقها من قانون فرض العقوبات ، وراحت المرأة العراقية مع الرجل تعاني الأمرين لتتدبر المعيشة، ففي بداية التسعينيات غدت أبسط مقومات الحياة شحيحة، وتضخمت العملة وتدهور الاقتصاد ، ولم تعد القوة الشرائية قادرة على المواكبة مع الانحدار السريع للاقتصاد.

ثم جاءت حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، وجاءت الحرب وويلاتها، وفي تلك المرحلة عانت العوائل العراقية من الدمار والموت والفاقة والحاجة وفقدان المعيل ، وتبعات الوقوف وحدها دون رجل ، إضافة إلى ما عانته من خوف وذعر ناجم عن أصوات القصف والمعدات الحربية.

وبتدمير البنى التحتية أصبح العراقيون يبحثون عن اللقمة والوقود المفقود ، وباتوا لا يعرفون ما جرى لبعضهم لانقطاع الخدمة الهاتفية، وبانتهاء الحرب وانسحاب الجيش العراقي من الكويت اندلعت انتفاضة الشعب لتشمل العراق بأسره...

وهنا لابد من الوقوف على مأساة المرأة العراقية في تلك المرحلة؛ فقد فقدت العديد من النساء الولد والزوج والأب والأخ، وصار لزامًا عليها أن تكون هي المعيل وهي المسؤول (ولي الأمر) عن عوائل يتيمة في ظل اقتصاد استثنائي، ماذا عساها تفعل؟ لقد صار منظر النساء اللواتي يفترشن الأرض في مجاميع شيء مألوف ، وتحولت الكثير من الموظفات إلى عاملات تنظيف أو عاملات يدويات بالأجرة اليومية، لأن أجر الوظيفة لم يعد يسد الرمق.

وراح الأطفال يتسربون من المدارس وتفشت الأمية ، وصار قانون التعليم الإلزامي لاغيًا على أرض الواقع ، وبعد ذلك راحت وتيرة الأيام تتنقل لتترك المرأة العراقية تواجه مع الرجل ضراوة الحياة غير الطبيعية والتي انعكست سلبًا على العلاقات الزوجية وتسببت في ارتفاع معدلات الطلاق.

وتعلمت المرأة العراقية في تلك الفترة ما لم تستطع تعلمه في جامعات ومعاهد التدبير والاقتصاد المنزلي، وصارت هي المسؤولة عن خياطة الثياب وتوفير الطعام وتربية الدواجن، بل ووصل الأمر بها إلى العلاج بالأعشاب في ظل نقص الدواء، ومن الجدير بالإشارة إلى أن عوائل كثيرة اضطرت إلى التخلي عن نصف مساكنها لتبيعها بأسعار بخسة لتسد جزء من متطلبات المعيشة في ظل تضخم العملة وانخفاض معدلات الرواتب إلى نحو دولارين في الشهر لكل موظف.

واستمرت المعاناة مع ارتفاع معدلات وفيات الأطفال في ظل نقص الدواء وتلوث المياه، حتى جاء عام ١٩٩٦ حين وقع العراق مع الأمم المتحدة اتفاق النفط مقابل الغذاء والدواء، وبعد أشهر من هذا الاتفاق لحظ الشارع العراقي تحسناً نسبيًا ملموسًا تجسد في مفردات البطاقة التموينية التي باتت مصدر المعيشة الأساسي للفرد العراقي آنذاك...

غير أن هذا الاتفاق لم يحسن من دخل الفرد العراقي ولم يوفر الدواء بالكم الكافي ولا حتى تأهيل أو صيانة مرافق البنى التحتية للبلد، في غضون ذلك طرأت على المجتمع العراقي ظاهرة جديدة هي السفر لجوء أو هجرة أو طلب للعمل في بلدان تفتقر إلى الكفاءات، وشهدت العائلة العراقية تفكك في مفاصلها، وبات الحصول على عقد عمل خارج البلد يكلف جهدًا ومالاً، وقد خلف هذا الظرف فراغ في جو العائلة العراقية وثغرة في بناء المجتمع العراقي، وبالتالي في نفسية المرأة العراقية...

بيد أن أملاً ظل بصيصه خافتًا، فكان العراقيون يتأملون ذلك اليوم الذي تزول فيه العقوبات الدولية ويغادرهم الكرب إلى غير رجعة.

حديث بدون رقابة إلى المرأة المندائية :

كتبت السيدة راهبة الخميسي في مقال لها :

دعيني سيدتي أتحدث إليك وبدون رقابة...

يا أيتها السيدة التي نهضت بروحها وتثقفت وتألقت وتسارعت للاندماج بالمجتمعات الحضارية التي انزجت بها لسبب أو لآخر ؛ لقد قرأت الكثير وطرق سمعك الكثير عن نقاء طائفتك التي تنتمين إليها ، حيث اتفق علماء الاجتماع والانثروبولوجيا والتاريخ وعلم الطبيعة على أن طائفتك نقية متفردة لا توجد مثيلة لها بأي مكان من العالم، والتي وجدت من بداية الخلق على حافة الزمن والتاريخ منذ آلاف السنين.

طائفتك سيدتي المندائية صمدت وتحدت الزمن، رغم أنها عاشت منعزلة ومنقطعة لممارسة طقوسها على حافات المياه أو منابعها ، وخصوصًا في جنوب العراق.

وبالرغم من أنها تجاوزت محنة انقراضها في القرن السادس عشر بسبب الأوبئة ؛ تتعرض الآن ومنذ فترة ليست بالقصيرة ، حيث انسحب عليها ما أصاب بلدنا من تعسف وظلم واستبداد وطغيان، مما أدى إلى تقلص عدد أبنائها بشكل كبير وواضح وللأسباب:

١ – كثرة عدد الوفيات.

٢ – قلة الإنجاب لعدم قدرة الشباب على الزواج، نتيجة الظروف القاسية من حروب وحصار والتي ألمت بالبلد.

٣ – الأمراض البيئية والبيولوجية بسبب الحروب أيضًا ، والتي أصابت فتياتنا المتزوجات بما يشبه العقم بسبب الأسلحة البيولوجية، وأقصد بذلك:

أ – الحمل خارج الرحم.

ب – الحمل الكاذب.

ج – الإجهاضات المتكررة وغيرها.

وبالنسبة للشباب الذي أجبر على تناول بعض المواد والتي من شأنها التقليل من طاقته إذا كان في جبهات القتال أو في السجون.

عدا ذلك من أسباب عزوف الشباب عن التقدم للزواج والارتباط خلال الفترة السابقة هو انعدام الأمان والضمان الوظيفي والاجتماعي والصحي والمادي، هذه الظاهرة وكما تعلمين سيدتي هي ظاهرة عامة بالمجتمع العراقي، بيد أنها متجسدة أو متضخمة في الطائفة بحكم قلة عدد أفرادها... أنتِ تعلمين أيضًا أن هنالك مشكلة كبيرة تعاني منها الطائفة، وهي ازدياد نسبة عدد الإناث على نسبة عدد الذكور في الطائفة المندائية.

أسالك الآن سيدتي : ما هو رأيك بكل ذلك؟ ألم تفكري يومًا لماذا نحدد النسل؟ ولماذا تكتفي السيدة المندائية بإنجاب طفل واحد أو اثنين فقط؟ أليست مطالبة بالمساهمة للإبقاء وازدياد أفراد هذه الطائفة العريقة؟ والتي تعرضت ولا تزال معرضة ومهددة بالانقراض؟

إنك سيدتي القادرة على إغناء الطائفة بأفراد جدد كونك الآن متحررة من جميع الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، وأنتِ تعلمين جيدًا أن المرأة المندائية عانت الكثير كونها ضمن نسيج المرأة العراقية، والتي وقع عليها عبء كبير بسبب الظروف الصعبة التي تعرضت لها، إضافة إلى الاضطهاد الديني الذي تعرضت له الطائفة من قبل المجتمع المتعصب ضد الدين المندائي.

بماذا تفكر السيدة المندائية اليوم؟ وهي تدري أن دينها يطالبها بالإنجاب؟ (آمنوا بربكم... إن العالم إلى زوال، ولا تكونوا كالذين يكرهون الحياة فيعزفون عن الإنجاب فيها، أثمروا إن أردتم أن تصعدوا حيث النور)... من كتاب الكنزا ربا العظيم..

لقد خطر بذهني وأنا أحاورك سيدتي كيف أن الشعب الفلسطيني يتسابق أفراده إلى زيادة النسل داخل فلسطين وخارجها، وبشكل ملفت، كل ذلك لهدف موحد

لديهم هو إثبات وجودهم والتفوق العددي على عدد الأفراد الإسرائيليين، ولهم قناعة كبيرة بهذا الهدف.

نحن لا نبغي التفوق على أحد، نحن نسعى للمحافظة على بقاء الطائفة وزيادة عدد أفرادها... إننا نلتقي بنفس الهدف مع الفلسطينيين وهو الديمومة والتفرد والبقاء باعتبار طائفتنا مميزة ومتفردة بالتاريخ المعاصر وعبر الزمن.

سيدتي : لا تجعلي موضة العصر تهيمن عليكِ أيتها الواعية، المتعلمة، المدركة كوني المبادرة لتحذوا الأخريات حذوك واعتبريها دعوه للإنجاب، فإن كل طفل يولد في طائفتنا يزيدها نورًا ويرسخ لها مكانة أوسع.

ولنقل معًا أننا سنبقى وسنستمر وستزدهر بنا الحياة وستزهو بنا المعمورة وأن ولادة فرد صابئي مندائي واحد ربما كفيل بأن يكون آدم بو الفرج، أو أحد الشيوخ، أو ربما أبو الإسحاق الصابي أو ثابت بن قرة أو عبد الجبار عبد الله.

خلق حواء ومكانتها في النصوص الصابئية المندائية :

إن الحديث عن الأسباب التي تمَّ بموجبها خلق حواء ؛ كما ذكر الأستاذ سالم غصاب في مقال له؛ والمضامين العميقة التي جاء بها كتابنا المقدس (كنزا ربا) وبقية كتبنا الدينية عن حواء يجعلنا نقول إنها تشمل المرأة بصورة عامة...

إننا في هذه المقالة سوف نعتمد على ما جاء من نصوص في كتاب النشوء والخلق إعداد وترجمة د. صبيح مدلول ، والتي تضمنت في جانب منها حديثًا عن خلق حواء ، عند تأملنا في النصوص الدينية في كنزا ربا نجد أن الملاك مندادهيي تقدم برجاء إلى الحي العظيم تبارك في علاه ، أن يبني له بناء وأن يغرس غرسًا ، وتعني هنا تكوين أسرة وأجيال وأن يجري له (يردنا) الماء الجاري للصباغة ليرتقي بآدم ، ويثبته في مكانه بعد أن يحين أجله ، وينصبه في موطن النور عند (اد كاس زيوا)، ويجعله ملاكًا أثري.

إن تكوين اليردنا هنا هو لغرض التعميد ، فبالصباغة يكون الفرد صابئيًا مندائيًا ، وبه يبتعد عن المساوئ والأدران ، وبالتعميد يرتقي المندائي إلى عالم النور بعد أن يحاسب على مساوئه التي ارتكبها على الأرض ، إن تنصيب آدم في موطن النور ليس بهذا الجسد الفاني ، بل إنه يرتقي بنسمته التي تحل في الجسد النوراني المحدد لها هناك ، ويكون بذلك ملاكًا أثريًا في موطن النور (كون النفس ملاكًا قادمًا من عالم النور).

وهناك نصوص مشابهة لهذا النص ، إن أحد رسل النور التمس من الحي الأزلي أن يخلق حواء لتكون رفيقة أو شريكة لآدم ، وكذلك نصوص كنزا ربا الأيمن ١٧ ص ٤٠٠ تذكر أن حواء خلقت لآدم ليتكاثر النسل في الدنيا... إن خلق حواء يعد إنجازًا عظيمًا ضد رمز الشر (الروهة) وملائكة الظلام بعد أن حاولوا أن يضللوا آدم ، إلا أن ملائكة النور التمسوا الخالق العظيم أن يمنحهم غرسة أي (حواء) (امنح لنا غرسة نغرسها لآدم ليتكاثر نسله في الدنيا) ، (سننادي على أثرا لآدم)، (وسنقيم عرسًا لآدم)، (ونعلمه أن يتخذ له امرأة).

ومن جانب آخر تتحدث نصوص (كنزا ربا) الأيمن ١ ص ١٥ (أن ملك النور الخالق العظيم يأمر بتكون عالم وتكوين الإنسان رجل وأنثى يجب أن يكون اسماهما آدم وحواء، وعدد من ملائكة الظلام يجب أن يخدموا آدم ، وثلاثة من ملائكة الضياء والنور يجب أن يرافقوا آدم ، يكون آدم الرجل وحواء زوجه، وهبطت نشمثا في الجسد، وعندما هبطت نشمثا في الجسد استوعبا وفهما كل شيء، وملائكة الظلام جاءوا وسجدوا أمام آدم ولم يبدلوا كلمته...).

وحين نتأمل هذا النص نجد أن الاستيعاب والفهم قد حدث بسبب هبوط نشمثا (النفس) في الجسد ، وكون النفس نفحة من الخالق وهبة منه قادمة من عالم النور ، أما سجود ملائكة الظلام أمام آدم يعني أن آدم أعلى منهم منزلة لكونه يحمل بعض صفات عالم النور ، وأن منزلة آدم هنا منزلة عظيمة، وخلق حواء بجانبه لتبقى ذريتهما في هذه الدنيا حتى النهاية ، وفي نفس هذا الاتجاه تشير إحدى نصوص كنزا ربا ٥ ص١٧٦ (وأنا هيبل ياور ، جعلت لآدم زوجة هي حواء لتزدهر وتثبت هذه الدنيا بهما).

وفي كتاب يحيى ص ٤ نجد أن حواء خلقت بهيئة منفصلة من قبل الحي العظيم (حواء زوجة خلقت من وعائها الخاص) ، وفي نص آخر من نفس لكتاب ص٥٦ (زوجة خلقت هنا كالأرض في هذا العالم) ، وهذا النص نص رمزي حيث ترمز السماء إلى آدم والأرض إلى حواء، وهذا ليس تقليلاً من شأن حواء إذ أن دلالة الرمز تشير إلى أن الأرض تخصب بماء المطر الذي ينزل من السماء فيحييها وينبت الزرع وينمو وينضج الثمر ، هكذا شبهت حواء بالأرض لكونها تستقبل ماء الحياة من آدم.

إن السلالة البشرية ما كانت لتكون لولا وجود حواء إلى جانب آدم ، بهذا يكون نسل آدم قد تكاثر ، أي أن الحياة البشرية ظهرت بظهور حواء عندما خلق آدم أصبح أملاً لجميع الأجيال ، وبعد أن تمَّ خلق آدم وحواء تمَّ تعليمهما التراتيل

والشعائر (الطقوس والصلوات والأعمال الصالحة)... هذه هي مكانة حواء في هذا العالم ويجب أن نفهم أن:

١- آدم يمتلك النفس التي تمتلكها حواء.

٢- حاز آدم على العلم والمعرفة التي حصلت عليها حواء.

٣- حصل آدم على الخلاص نفسه الذي حصلت عليه حواء.

٤- الطقوس التي تجرى لآدم تجرى لحواء.

المرأة... ما لها وما عليها :

منح الدين الصابئي المندائي المرأة حقوقًا واسعة، وعاملها معاملة مثالية رائعة، وأضفي عليها احترامًا يليق بها ، وساوى في تعاليمه بينها وبين الرجل إلى أقصى حد ، فنسب المواليد إليها ؛ فلان (الاسم الديني) بر (بن) فلانة ، وفلانة (الاسم الديني) بث (بنت) فلانة، وهذا شرف عظيم يمنحه الحي الأزلي للمرأة.

كما أوصى بالزواج ونبذ العزوبة وقال من يعش بلا زوجة في حياته يكن بعيدًا عن الجنة في آخرته ، وأكد أن الإنجاب استمرار للجنس البشري ، به تدوم الحياة وتبقى العقيدة والإيمان ، كما منح الزوجة حق اختيار زوجها دون ضغط أو إكراه على أن تكون هذه الرغبة أو الاختيار مصحوبة برضا الأهل ، وقد ألزم الزوج بالعدل وحسن المعاملة وإعمار الدار واقتسام لقمة العيش مع زوجته وبعدم خيانتها ، وبالعمل على إشاعة السعادة داخل البيت ، كما منع الطلاق إلا في حالات نادرة جدًا ، وشجع المرأة على طلب العلم والمعرفة ، ومنحها حق العمل لكسب لقمة العيش. ومقابل كل هذه الحقوق؛ فرضت عليها واجبات يجب الالتزام بها والحرص على تطبيقها بوعي ونزاهة ، فعليها أن تصون العهد وتخلص لزوجها وتحترم ذويها وتشاركهم في تحمل أعباء الحياة ، وأن تحافظ على أبنائها وترعاهم وتحصنهم بالإيمان من أجل إبعادهم عن الشطط والزلل وطريق الشر ، وأن يكون دورها فاعلاً في بناء الأسرة وتوفير الظروف الحياتية الضرورية للعائلة، وأن تجعل من بيتها جنة صغيرة لتجد العائلة في ظلالها الراحة والسعادة والطمأنينة ، وعليها أن تبتعد عن الإثارة والمتاعب والمنغصات التي تهدد كيان الأسرة.

هذا ما يخص المرأة في علاقاتها الحياتية مع زوجها وأسرتها ؛ أما ما يخص علاقاتها بالجانب الديني فعليها أن تصطبغ (تتعمد) في كل مناسبة دينية ، لأن الصباغة تمهد لها طريق الخلاص والغفران ، وبها يتقبل الحي العظيم منها التوبة الصادقة، ويغفر ذنوبها ويمنحها الطمأنينة وراحة البال.

ولا يجوز لها نقض العهد المقدس الذي يربط بين الزوجين أو الخروج عليه، وذلك بابتعادها عن كل ما يسيء لسمعتها ولدينها، ولكي يكون دعاؤها مقبولاً من لدن الحي، ولكي تدخل البركة إلى بيتها يجب أن تكون صادقة مع نفسها وأمام الله، وألا يغيب اسم (منذادهيي) عارف الحياة عن بالها.

كما عليها أن تأخذ دورها الفعال في تربية أطفالها وهدايتهم وأن تجعل من بيتها دار عبادة مثل (المندي) لتوفير الظروف الدينية المناسبة، كما عليها الابتعاد عن الشعوذة والسحر وعن كل ما يتعارض مع مبادئ وتعاليم ديننا التي تؤكد على النقاء والطهارة وحب العلم والمعرفة.

وعليها أن تتحمل المسؤولية في الوعظ والإرشاد والتوجيه جنبًا إلى جنب مع الرجل وضرورة التعاون معه من أجل الوصول إلى الحياة الأبدية الخالدة أمام الحي الأزلي، وعليها أن تتمسك بعرى الدين، وتقتدي بجداتها في السنين الماضية، وذلك في تناول اللحم (النظيف) المذبوح بطريقة صحيحة، والاعتماد على الطعام المعد داخل البيت.

وهناك من الأمور ما يخص الطائفة ومستقبلها وما يتعلق وأهدافها وآمالها، فعلى المرأة أن تضطلع بدور طليعي في نهضة الطائفة وتوجهاتها الجادة من أجل حياة منظمة مشرقة، ومن الأمور التي تساعد على ذلك إيجاد معلمات ومربيات مندائيات في (المندي) يأخذن على عاتقهن تعليم أبناء الطائفة وتوجيه الأطفال ورعايتهم، وأن يقمن علاقات اجتماعية وثيقة بين العوائل ويعملن على تقويم الروابط بينها من خلال إقامة الحفلات (عيد ميلاد مثلاً أو حفلة زفاف)، وإجراء المزيد من اللقاءات عبر الندوات الثقافية والدينية في النادي أو المندي، ومن خلال السفرات الجماعية، وعلى المرأة كذلك القيام بتفقد العوائل المتعففة والمعوزة ودعمها ماديًا ومعنويًا قدر المستطاع، والمشاركة في الأفراح والمسرات، وكذلك في الأحزان والمآتم التي تقام، والتأكيد على أن المندائيين سواسية وهم عائلة واحدة.

خلق آدم و حواء :

وخلقنا آدم من الطين الأحمر ومن الدم والمرارة وأسرار الكون جُبل آدم وحواء وحلَّت فيهما نشمثا بقدرة ملك النور... قال الحي: (ليسجد ملائكة النار لآدم ، لا يخالفون له قولاً ، فسجدوا إلا الشرير فقد أبى ، فأسره ربه أسرا).

أنا الرسول الطاهر أمرني ربي أن أذهب ونادِ آدم وحواء زوجة بصوت سنى علم آدم ليستنير قلبه، وقومه ليستنير عقله وجنانه، كن أنسًا له أنت والملاكان اللذان معك إلى العالم سيهبطان ، علمه وزوجه وذريته الحكمة كيلا يغويهم الشيطان ، علمهم الصلاة يقيمونها مسبحين لملك النور السامي ثلاث مرات في النهار ومرتين في الليل ، قل لهم اتخذوا لأنفسكم أزواجًا وتناسلوا منكم ليزداد عددكم، وإذ تقربون أزواجكم فأطمشوا وطهروا نفوسكم، قل يا عبادي لا تزنوا ولا تسرقوا ولا تنتهكوا حرمات الناس... كنزا ربا اليمين الوصايا.

خلق الحي العظيم حواء كما خلق زوجها آدم ، بمعنى أن الملاك بثاهيل صنع الجسد من الطين الأحمر (الصلصال) ، ومن الدم والمرارة وأسرار الكون ، وبعث لها نشمثا بأمر من الحي العظيم وأولجها في جسدها الملاك منداهيي ، وليس كما تذكر بعض الكتب أنه أخذ ضلع من آدم ، وعليه تمَّ بناء حواء، لأن علم التشريح يؤكد بالدليل القاطع أن لكل من آدم وحواء ٢٤ ضلع لكل منهما بالتمام والكمال، أي أنهما متساويان.

إن الحي العظيم أمر أن تكون حواء أنيسًا لآدم، وأمر أن يتناسلا لتزداد ذريتهم ولتبتهج بهم الدنيا وعمَّر آدم ، وبعد عمر طويل عاش آدم ألف عام ، وأتى رسول الحي وأمر آدم أن يخلع ثوب الطين لأن عمره في هذا العالم انتهى ، ولكن آدم خاف الموت وقال للمخلص ملك الموت: يا أبتا إن أتيت معك فدنياي من سائسها؟ وزوجتي من يؤانسها؟ وأغراسي التي أنا غارسها من حارسها ، من يمد إليهم يد ويكون لهم سند؟ من يبذر البذور المباركات؟ من يحمل الماء من دجلة والفرات؟ من يعين التي تلد؟ من يلاقي الذي يفد؟.

آدم قلق: (إن أنا خرجت من هذا الكساء وأتيت معك فمن سيحرسه في يومه ؟ ومن يوقظه من نومه ؟ من يطعمه ومن يسقيه ؟ وريب الدهر من يكن صاحبه فيه ؟ من يدفع عنه الرعد إذا دمدم ؟ ومن يبني هيكله إذا تهدم ؟ من يهيئ له محلا ؟ من يصنع له ظلا ، من يمنع الشمس إذا تقع عليه ؟ والرياح أن تسعى إليه والأتربة تملأ عينيه ، والطيور إذا بنت أوكارها ، من يذودها أن تطعم من يحي صغارها ؟).

وأراد آدم أن يصعد جسده مع نشماثته إلى عالم الأنوار، ولكن المخلص أخبره أنه لا يصعد جسد ولا زوجة ولا ولد ولا أم ولا أب ولا أخوة ولا أخوات ولا أبناء ولا بنات، ولا ذهب ولا فضة، إنما الإنسان يصعد مع نشماثته أعماله وصدقته ووسمه وصباغته، يسأل عنها إذا خرج من الجسد ولن يجيب عنه أحد، إن إخوتك وآباءك في عالم الحق سيكونون الأثريين الصادقين، اطمئن يا آدم إنك في هذه الحياة لن تتوجع ولن تشيخ ولن تموت موتاً ثانٍ.